المقتطف والمتنبِّي [١]

المقتطف شيخ مجلاتنا ؛ كلُّهنَّ أولادُه ، وأحفاده ؛ وهو كالجدِّ الأكبر : زمنٌ يجتمع ، وتاريخٌ يتراكم ، وانفرادٌ لا يُلحق ، وعلمٌ يزيد على العلم بأنَّه في الذَّات ؛ الَّتي تفرض إجلالها فرضاً ، وتجب لها الحرمة وجوباً ، ويتضاعف منها الاستحقاق ، فيضاعف لها الحقُّ .

وهل الجدُّ إلا أبوَّةٌ فيها أبوَّةٌ أخرى ، وهل هو إلا على عرشٍ حيٍّ ؛ درجاته الجيل تحت الجيل ، وهل هو إلا امتدادٌ ؛ مسافاته العصر فوق العصر ؟

والمقتطف يكبر ، ولا يهرم ، ويتقدَّم في الزَّمن تقدُّم المخترعات ماضيةً بالنَّواميس إلى النَّواميس ، مقيَّدةً بالمبدأ إلى الغاية ؛ وهو كالعقل المنفرد بعبقريَّته ؛ واجبه الأوَّل أن يكون دائماً الأوَّل : فلقد أنشئ هذا المقتطف وما في المجلات العربيَّة ما يغني عنه ، ثمَّ طوى في الدَّهر سبعةً وثمانين مجلَّداً ، أقامها سبعة وثمانين دليلاً على أن ليس ما يغني عنه ؛ ثمَّ أسفَّت الدُّنيا حوله بأخلاقها ، وطباعها ، وتحوَّلت مجلاَّتٌ كثيرةٌ إلى مثل الرَّاقصات ، والمغنِّيات ، والممثِّلات . . . وبقي هو على وفائه لمبدئه العلميِّ ، والسُّموِّ فيه ، والسُّموِّ به ، كأنَّما أُخذ عليه في العلم ، والأدب ميثاقٌ كميثاق النَّبيِّين في الدِّين ، والفضيلة ، فبين يديه الواجبُ ، لا الغرض ، وهمُّه الإبداع بقوى العقل ، لا الاحتيال بها ، وهمُّه الحقيقة الثَّابتة في الدُّنيا ، لا الأحلام المتقلِّبة بهذه الدُّنيا ، وطريقه في كلِّ ذلك طريق الفيلسوف في هدوء نفسه ، لا من أحوال الدَّهر ، فهو ماضٍ على اليقين ، نافذٍ إلى الثِّقة ، متنقِّلٍ في منزلة منزلةٍ من يقينه إلى ثقته ، ومن ثقته إلى يقينه .

وقد بدأ المقتطف مجلَّده الثَّامن والثَّمانين بعددٍ ضخمٍ أفرده للمتنبِّي [٢] . ولئن كانت الأندية ، والمجلات قد احتفلت بهذا الشَّاعر العظيم ، فما أحسب إلا أن روح

(١) كتاب « المتنبي » للصَّديق محمود محمد شاكر . (س) .

(٢) يناير ، سنة (١٩٣٦) . (س) .

الشّاعر العظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف .

ولست أغلو إذا قلت : إنَّ هذه الرُّوح المتكبِّرة قد أظهرت كبرياءها مرَّةً أخرى ، فاعتزلت المشهورين من الكتَّاب ، والأدباء ، ولزمت صديقنا المتواضع الأستاذ محمود شاكر مدَّة كتابته هذا البحث النَّفيس ؛ الَّذي أخرجه المقتطف في زهاء ستين ومئة صفحة ، تدلُّه في تفكيره ؛ وتوحي إليه في استنباطه ، وتنبِّهه في شعوره ، وتبصِّره أشياء كانت خافيةً ، وكان الصِّدق فيها ؛ ليردَّ بها على أشياء كانت معروفةً وكان فيها الكذب ، ثمَّ تعينه بكلٍّ ذلك على أن يكتب الحياة الَّتي جاءت من تلك النَّفس ذاتها ، لا الحياة الَّتي جاءت من نفوس أعدائها ، وحسَّادها .

ولقد كان أوَّل ما خطر لي بعد أن أمضيت في قراءة هذا العدد : أنَّ المؤلِّف جاء بما يصحُّ القول فيه : إنَّه كتَب تاريخ المتنبِّي ، ولم ينقله ، ثمَّ أمعن في القراءة حتَّى خُيِّل إليَّ : أنَّه قد وضع لشعر المتنبي بعد تفسير الشرَّاح المتقدِّمين والمتأخِّرين تفسيراً جديداً من المتنبِّي نفسه ؛ وما الكلمة الجديدة في تاريخ هذا الشَّاعر الغامض إلا الكلمة الَّتي نشرها المقتطف اليوم .

إنَّ هذا المتنبِّي لا يفرغ ، ولا ينتهي ، فإنَّ الإعجاب بشعره لا ينتهي ، ولا يفرغ ؛ وقد كان نفساً عظيمةً خلقها الله كما أراد ؛ وخلق لها مادَّتها العظيمة على غير ما أرادت ، فكأنَّما جعلها بذلك زمناً يمتدُّ في الزَّمن .

وكان الرَّجل مطويّاً على ما ألقى الغموض فيه من أوَّل تاريخه ، وهو سرُّ نفسه ، وسرُّ شِعره ، وسرُّ قوَّته ، وبهذا السِّرِّ كان المتنبِّي كالملك المغصوب ؛ الَّذي يرى التَّاج ، والسَّيف ينتظران رأسه جميعاً ، فهو يتَّقي السَّيف بالحذر ، والتَّلفُّف ، والغموض ، ويطلب التَّاج بالكتمان ، والحيلة ، والأمل .

ومن هذا السِّرِّ بدأ كاتب المقتطف ، فجاء بحثه يتحدَّر في نسقٍ عجيبٍ ، متسلِّلاً بالتَّاريخ ، كأنَّه ولادةٌ ، ونموٌّ ، وشبابٌ ، وعرض بين ذلك شعر أبي الطَّيِّب عرضاً خُيِّل إليَّ ، أنَّ هذا الشِّعر قد قيل مرَّةً أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه ، وأحوالها ، وبذلك انكشف السِّرُّ ؛ الَّذي كان مادَّة التَّهويل في ذلك الشِّعر الفخم ؛ إذ كانت في واعية الرَّجل دولةٌ أضخمُ دولةٍ ، عجز عن خلقها وإيجادها ، فخلقها شعراً أضخم شعرٍ ، وجاءت مبالغاته كأنَّها أكاذيب آماله البعيدة متحققةً في صورةٍ من صور الإمكان اللُّغويِّ .

ومن أعجب ما كشفه من أسرار المتنبِّي سرُّ حبِّه ، فقال : إنَّه كان يحبُّ خولة أخت الأمير سيف الدَّولة ، وكتب في ذلك خمس عشرة صفحةً كبيرةً ، وكأنَّها لم تُرضه ، فقال : إنَّه كان يؤمِّل أن يكتب هذا الفصل في خمسين وجهاً من المقتطف ؛ وهذا الباب من غرائب هذا البحث ، فليس من أحدٍ في الدُّنيا المكتوبة (أي : التَّاريخ) يعلم هذا السِّرَّ ، أو يظنُّه ، والأدلَّة الَّتي جاء بها المؤلِّف تقف الباحثَ المدقِّق بين الإثبات والنَّفي ، ومتى لم يستطع نفياً ، ولا إثباتاً في خبرٍ جديدٍ يكشفه الباحث ، ولم يهتدِ إليه غيره ، فهذا حسبُك إعجاباً يُذكر ، وهذا حسبُه فوزاً يُعدُّ .

ولعمري ! لو كنت أنا في مكان المتنبِّي من سيف الدَّولة لقلت : إنَّ المؤلِّف قد صدق . . . فهناك موضعٌ لا بدَّ أن يبحث في قلب الشَّاعر ؛ الَّذي وضعت فيه الدُّنيا حكمتها ، وطوت فيه القوَّة سرَّها ، وبثَّ فيه الجمال وحيَه ، وأصغر هذه الثَّلاث أكبرُ من الملوك ، والممالك ، ولكنَّ الحبيبة أكبر منها كلِّها .

* * *